جامعة أبو بكر بلقايد – تلمســـــــــــــــان –
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
قسم الفلسفـــــــــــة

مقياس عن بعد /السداسي الأول : الفلسفة والبيوإتيقا

المستوى: LMDS5

الموسم الجـــــــامعي: 2025-2026

الأستاذ المسؤول عن المقياس:د, بن عيسى خيرة.

المحاضرة السابعة: جذور البيوإتيقا

مع اليونـان

بغض النظر عن ملامح وجذور البيواتيقا في الحضارات الشرقية القديمة، يمكن أن نشير إضافة إلى ذلك إلى مرحلة ربما يمكن اعتبارها بداية حقيقية لما يسمى اليوم بالأخلاق الحيوية، وذلك مع أبقراط الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد في اليونان (جزيرة كوس Cos)، كانت هذه المرحلة بدائية إن صح التعبير، فلم تكن علوم الطب قد بلغت مستوى من التقدم وذلك لامتزاج معارف اليونان وعلومهم بالميتولوجيا اليونانية والسحر والخلطات والتعاويذ، ولكن كانت هناك ملامح النور والعقل، عندما حاول الإنسان الانتقال من الميتوس إلى اللوغس، ظهر أبقراط الذي قدم محاولة مهمة ساهمت في الانتقال بالطب من الأسطورة ومن تفسير الظواهر الحيوية تفسيرا ميثولوجيا مقترنا بالآلهة والمعتقدات القديمة إلى العقل، وربط بين الطب والأخلاق من خلال مفهوم الواجب، ويمكن هنا أن نشير إلى ما يسمى بـ "القسم الأبقراطي" Le serment d'ippocrate

يعتبر هذا القسم بمثابة أول محاولة لوضع قوانين ومبادئ أخلاقية في الطب وربطها بالواجب والنية، ومن ثمة هو يجعل الطبيب أمام مبدأ المسؤولية الأخلاقية، إذ يعتبر "أبقراط واحدا من أكثر الشخصيات البارزة في تاريخ الطب في اليونان الذي لا يزال الأطباء في العالم كله يرددون قسمه قبل ممارسة المهنة، والذي اعتبر أبو الطب البشري تقديرا لإسهاماته الباقية في مجال الطب كمؤسس مدرسة أبقراط للطب حيث قامت هذه المدرسة الفكرية بثورة في الطب في اليونان القديمة، لتصبح تخصصا متميزا عن المجالات الأخرى التي قد ارتبط تقليديا بها (لا سيما السحر والشعوذة والفلسفة) مما يجعل الطب مهنة"

كانت قيمة المريض قبل كل شيء واحترام شعوره وجسده كذلك من الأولويات التي يجب أن يفكر فيها الطبيب في كل معاملاته اليومية مع المرض وأبوقراط كان حريصا على جدا في نقاط كانت قد تبدو بسيطة لكنها هي في الأصل من مبادئ الإنسانية واحترام الحياة البشرية ومنها أنه يقول في أغلب كتاباته: لا شك أن على الطبيب أن يكون ذا مظهر جيد، وفي صحة جيدة ليكون قدوة للناس لأنهم يرون أم من لا يعرف الاعتناء بجسده ليس في وضع يسمح له بالاعتناء بغيره، وعليه أن يعرف متى يتكلم ومتى يصمت، وعليه أن يعيش حياة منظمة لأن ذلك يعزز سمعته، وعليه أن يتعامل بصدق ولطف م الناس، وعليه أن يكون متفهمنا؛ فلا يتسرع أو يتهور، وعليه أن يكون هادئا وينصت بإمعان، وأن لا يقاطع الحديث ومن ناحية أخرى ليس عليه أن يكون شديد الابتهاج".

لم تكن البيوتيقا إلى زمن أبقراط والطب اليوناني قائمة بالمعنى الاصطلاحي التخصصي الذي نعرفه اليوم، بل مثلت كل تلك المحاولات الخالدة نواة أو بذرة عبرت عن علاقة الإنسان بالصحة والحياة ومدى ارتباطها بالمسؤولية الأخلاقية اتجاه الكائن الحي .

لا تخلو أي فلسفة من الفلسفات الكبرى من الحديث عن علاقة الأخلاق بالإنسان أو بالحياة، باعتبار أن قيمة الإنسان هي قيمة تقاس بمستوى السلوك والتربية والانضباط، ومن ثمة نظرت الفلسفة لهذه العلاقة على مستويات مختلفة ولكنها لم تؤسس لما سمي بالأخلاق الحيوية بالمعنى الاصطلاحي الذي قامت عليه في القرن العشرين وهو ما ستحاول عرضه في المحاضرة اللاحقة تحت عنوان نشأة البيواتيقا .

وإن كان أبقراط ينتمي إلى طائفة الأطباء أكثر من الفلاسفة فاننا تريد هنا أن تعرج على جذور البيواتيقا عند الفلاسفة أنفسهم ، ونشير باختصار إلى أرسطو.

إسهامات أرسطو الفلسفية

تجاوز أرسطو، الذي نريد أن نشير له هنا لا على أساس أنه أسس لبيواتيقا قديمة بل على أنه تناول الأسئلة الكبرى التي قامت عليها البيواتيقا المعاصرة على رأسها قيمة الحياة وصاغ من خلالها نظريات فلسفية مهمة.

ولا شك أن أرسطو قد صاغ لنا فلسفة متماسكة في الحياة والطب والأخلاق، ورغم أن البيواتيقا العلم الذي أصبح اليوم تخصصا قائما بذاته في القرن العشرين كان يُؤسس لفكرة قيمة الحياة؛ فإن له أبعاد أخلاقية وأنطولوجية في فلسفة أرسطو.

لقد خصص الفيلسوف اليوناني كتابا مهما "في النفس" بحث فيه في طبيعة الكائن الحي، وعرّف الإنسان ليس على أنه كائن بيولوجي فحسب، بل هو إلى جانب ذلك يتميز بالعقل، ولا شك أن ذلك يظهر بشكل جلي عندما قسم النفس البشرية إلى نفس غادية وهي التي تشترك فيها كل الكائنات الحية، والنفس الحاسة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان ،

وأخيرا النفس العاقلة التي يختص بها الإنسان لوحده، وهي النقطة التي يمكن أن نقارب بها بين فلسفة أرسطو حول الكائن الحي والبيوإتيقا.

لقد كان مبدأ الحياة في الكائن الحي هو جوهر النقاش في البيوإتيقا، والذي أفضى إلى الحديث عن قيمة الحياة عند الكائنات الحية غير العاقلة، وإلى حدود ذلك بين الإنسان والحيوان (هل قيمة الحياة عند الحيوان هي بنفس قيمة الحياة عند الإنسان)، وفهم مبدأ الحياة كقيمة في ذاتها، وعندما ننظر إلى أرسطو في فلسفته في العلة نجده يتحدث عن العلة الغائية، وهي في أبسط تعريفاتها "الكائن الحي يتجه نحو غايته وهي غاية نهائية شريفة".

ومن ثمة تكمن قيمة الكائن الحي في مدى آدائه لوظائفه التي هي غاية الكائن الحي، فلا ينظر إلى الحياة على أنها بيولوجية بقدر ما هي وجود متكامل لقوى نفسية وعقلية إضافة إلى البيولوجية.

لقد كانت فلسفة أرسطو تجعل من النفس مبدأ الحركة في الجسم، ومن ثمة هي مبدأ الحياة، وإن كانت هذه المقاربة بعيدة على أن تُفهم في سياق الحديث عن الجذور القديمة لما يسمى اليوم بالبيوإتيقا فإننا نقول: إن الحياة عند أرسطو مبدؤها النفس والنفس هي صورة تمنح الجسم الحياة، ومن ثمة يتحول الكائن الحي عند أرسطو إلى بنية متكاملة قائمة على نظام حيوي منظم، وهنا لا يمكن فهم الكائن الحي على أنه مجرد جسم مادي فقط، ثم إن كل حي هو في فلسفة أرسطو يتحرك نحو كماله وغايته.

ثم يؤسس أرسطو هذه العناصر التي خلص إليها على قاعدة أخلاقية فيجعل الخير هو الكمال الذي هو غاية الكائن الحي فترتبط الحياة بالضرورة بالقيمة، وهي المحاولات التي تُقوم عليها البيوإتيقا اليوم، وعلى ذلك يكون مبدأ القيمة الأخلاقية عضوا مساهما في سلامة النفس وبالتالي سلامة الحياة.

يمكن أن نشير هنا كذلك إلى الحكمة العملية أو العقل العملي عند أرسطو ، وهو عقل يتولى مهمة توجيه السلوك وضبطه، بل هي من إمكانها وضع المعايير الأخلاقية للسلوك البشري، فهي تتولى مهمة وضع القوانين التي تجعل الحياة ممكنة وفاضلة وعادلة، وهي مرتبطة بالواقع العملي، ولا شك أن البيوإتيقا تتولى هذه المهمة في مجال البيولوجيا فتطرح سؤال الحياة وتحاول البحث عن المبادئ التي من شأنها الحفاظ على قيمة الكائن الحي، وعلى هذا يمكن اعتبار أرسطو بمثابة المساهم الفلسفي في وضع الجذور الأولى للبيوإتيقا من خلال طرحه للأسئلة البيوإتيقية، وصياغته للمفاهيم الكبرى التي يشتغل عليها هذا العلم ليوم.

إن متابعة جذور التفكير الأخلاقي في العلوم الطبية سيكون طويلا، لأنه كما سبق وأشرنا لا تخلو أي حقيقة تاريخية من التفكير في تلك العلاقة، وفي محاولة توجيه تطور الطب

ووضع القوانين والضوابط له، وما يمكن أن نشير إليه بعد أرسطو هو: هل يمكن الحديث عن هذه العلاقة وهذا الاهتمام في الدين أو في الخطاب الديني واللاهوتيات الكبرى، والسؤال المطروح هنا هو: ما هي علاقة الدين بالبيوإتيقا ؟ أو هل نجد للدين تأثيرا على البحوث الطبية أو تدخلا فيها ؟ أو هل يوجد في الخطابات الدينية ما يُؤسس فعلا لما يسمى بالبيوأتيقا؟ أم لا علاقة بينهما؟

يفتح موضوع الدين والبيوإتيقا مجالا واسعا غير محسوم في النهاية من النقاشات والأسئلة الكبرى التي سنحاول إثارتها في المحاضرة اللاحقة حول **جدل البيوإتيقا والدين**.